**مجلة الدراسات الفلسطينية**، المجلد 20، العدد 78 (ربيع 2009)، ص 53

**عميره هـاس***

# خوف وسخرية في سجن غزة

**هذه المقالة التي كتبتها عميره هاس خصيصاً لـ "مجلة الدراسات الفلسطينية" مؤلمة وواخزة واستفزازية معاً، وتبدو كأنها غير محايدة على الإطلاق. لكن هاس، العربية اليهودية التي اشتهرت بمناوءتها الاحتلال ومساندتها القضية الفلسطينية، تكتب بما يتخطى الانقسام الفلسطيني الجديد. إنها، هنا، في هذه المقالة، لا تنحاز إلى أي طرف فلسطيني، بل تكتب بعيون أُخرى، الأمر الذي لن يرضى عن هذا الطراز من الكتابة البصرية أي طرف فلسطيني منخرط في عملية الانقسام الأهلي. وترصد عميره هاس في هذه المقالة الأحوال المأساوية في قطاع غزة، وتعيد إلى الذاكرة أيام الحرب التي انصب فيها "الرصاص المسبوك" على الناس في مدينة غزة، ولا تُغفل أدق التفصيلات اليومية بما في ذلك "الزنّانات"، وهي طائرات بلا طيار شديدة الإزعاج، وتثير خوف السكان ممّا ينتظرهم بعد كل جولة. وتلتقط الكاتبة تفصيلات راعبة ومروّعة عمّا يحدث في غزة: فالأطفال في الثالثة عشرة باتوا يبللون سراويلهم ويتصرفون بعنف في منازلهم؛ الشيوخ صاروا يتمتعون بالقدرة على رواية "الفكاهة السوداء" والنكات الهاذية؛ الدراسة في جامعة بير زيت طموح يداني الوصول إلى القمر... وهكذا. هذه الحالات وغيرها جعلت الكاتبة تصف الحياة اليومية في قطاع غزة بِـ "السجن".**

"هناك ثلاثة أنواع من الزنّانات (طائرات صغيرة بلا طيارين): الأول، يراقبنا ويصور كل حركة وكل شخص؛ الثاني يطلق علينا الصواريخ..." كان المتحدث أحد الموظفين في وزارة شؤون الأسرى في غزة، التي كانت معقلاً لحركة "فتح" في السابق، وقد أمكن لي أن أتكهن بأن زميليه، عندما صافحتهما لدى دخولي الغرفة، هما من موظفي النظام القديم (Ancien Regime) المعدودين الذين اختاروا مواصلة العمل وعدم الجلوس في البيت لقاء الراتب الذي يتلقونه من رام الله. أمّا المتحدث فكان أحد الذين لم يمدوا أيديهم لمصافحتي، وأكد أنه من أتباع "حماس". وبلباقة نموذجية استبق ما ينوي قوله مستميحاً مني العذر: من المعروف، كما يعلمنا القرآن، أن اليهود لا يحترمون كلمتهم. وبالاتزان نفسه عدّد أنواع الزنّانات، لكن عندما وصل إلى النوع الثالث، غمز بعينيه على الطريقة الغزّية المعروفة: "والنوع الثالث، كل هدفه هو أن يثير أعصابنا، أن يفتح ثقوباً في رؤوسنا، أن يدفعنا إلى الجنون." وبمهارة عالية قلّد بصوته أزيز الزنّانة – الصرخة الأخيرة في حروب ما بعد الحداثة.

هذه الزنّانات التي تراقب وتثير الأعصاب وهي تحوم فوق غزة بلا توقف تقريباً، تكون بادية للعيان أحياناً (خلال الهجوم الذي استمر ثلاثة أسابيع، شبهها أحدهم بأسراب الطيور التي تحلق في الجو، على طريقة فيلم Birds لـ هيتشكوك: "كانت السماء سوداء من كثرة الزنّانات"، هكذا قال بتهويل على الطريقة الغزيّة)، وفي أحيان أُخرى يشعر بها المرء عن طريق التشويش الدائم والمثير للأعصاب الذي تسببه للبث التلفزيوني، وبالتحديد في الأجزاء الأكثر إثارة وتشويقاً من الأفلام. إياد، وهو صديق قديم، يستعيد ذكريات الماضي: في فترة الاحتلال المباشر، عندما كان الجيش بأذرعه كلها يرابط داخل غزة، كان هناك جندي من حرس الحدود مكلفاً مهمة خاصة: اختراق بث الأفلام في محطات التلفزة، وإطلاق أصوات زعيق متكررة، تحديداً في الأجزاء المثيرة والمشوقة، وبالذات في ساعات منع التجول الليلي عندما لا يكون هناك ما يمكن القيام به إلاّ الهروب إلى العالم الذي تعرضه الأفلام. بالنسبة إلى إياد، من الصعب أن يعرف المرء في الوهلة الأولى متى يكون مازحاً ومتى يتحدث عن شيء حدث فعلاً. إنه يتمتع بموهبة تناول الواقع من خلال جوانبه المضحكة، التافهة إذا جاز التعبير. وفي حديثي معه هذه المرة، في شباط/فبراير أو آذار/مارس 2009، تحدث أيضاً عن الزنّانات التي ينحصر هدفها في إثارة الأعصاب. إن القفزة إلى الوراء، في أثناء حديثه، إلى أسلوب إثارة الأعصاب الذي كان متبعاً قبل عشرين عاماً أو يزيد، صوّرت على الفور النقلة التكنولوجية الهائلة التي قامت بها إسرائيل على طريق تحويل غزة إلى ذلك المعسكر المغلق، والخاضع لرقابة دائمة وسيطرة غير منظورة ومتغلغلة. كل حركة يقوم بها أي فرد من سجنائه يتم تصويرها، وتوثيقها، ونقلها إلى شاشات الكومبيوتر في غرف مراقبة تشغلها شابات وشبان إسرائيليون أكفاء ومحبون للحياة واللهو، يستطيعون بواسطة أمر يصدرونه عن طريق لوحة المفاتيح تحويل كل زنّانة تقوم بالمراقبة وإثارة الأعصاب إلى زنّانة موت.

ولهذا السبب، فإن العصبية والتندر بشأن الزنّانة يخفيان وراءهما دائماً خوفاً من أمر ما: عندما يُسمع أزيز الزنّانة، ماذا تنوي أن تفعل؟ هل هي تتربص بشخص ما؟ هل تمهد لهجوم؟ أين؟ ضد من؟ هجوم محلي أم هجوم أكبر؟ خلال الأسابيع والأشهر التي تلت هجوم كانون الأول/ديسمبر – كانون الثاني/يناير، استحوذ على الناس خوف دائم من استئناف الهجوم، ولو لسبب واحد هو أن إسرائيل، بحسب فهمهم، لم تكمل المهمة التي أعلنتها (تصفية سلطة "حماس" و/أو "إزالة تهديد صواريخ القسام"). وخلال شهرَي نيسان/أبريل وأيار/مايو سرت في غزة شائعات وتقويمات وتحليلات متنورة توقعت اندلاع "حرب أُخرى"، وقد فُسر كل تصريح أدلى به سياسي إسرائيلي على أنه مؤشر إلى الحرب. وكان ثمة مَن أقسموا على أنهم سمعوا تقويمات كهذه من وسائل إعلام إسرائيلية. كما أنه كان من الصعب أن يثبت المرء أن التوقعات المستقبلية ليست صحيحة. وتحدث معلقون فلسطينيون انتدبوا أنفسهم لهذه المهمة، بثقة تامة، عن حرب أُخرى، وشيكة، كأنها أمر مؤكد، كأنها معلم على الطريق ليس الوصول إليه سوى مسألة وقت، معززين بذلك حالة الذعر التي يعيش فيها مليون ونصف مليون نسمة في قفص. أمّا المتشككون فلم يفهموا من أين أتت تلك التحليلات والإشاعات كلها. بسام، الذي يتمتع بمنطق حديدي يتميز به أبناء جباليا، قال أنه على قناعة بأن التجار هم الذين بدأوا بها: لقد رفع الذعر الطلب على سلع متنوعة (يتم استيرادها تحت الأرض وفوقها، عبر الأنفاق والمعابر)، ورفع معه الأسعار.

في قفص غزة، تُعتبر درجة تحكم الناس في مستقبلهم، وفي مسيرة حياتهم، ضئيلة. وفي فترة الهجوم الأخير (حتى اللحظة؟)، زال المجال المقلّص الذي يسيطرون عليه، إذ لم يكن هناك مكان يهربون إليه من القصف والقذائف، أو مكان يختبئون فيه لإنقاذ حياتهم والمحافظة على حياة أولادهم. وخلال الأشهر التي تلت الهجوم، تركت هذه التجربة انطباعات معينة: "من حسن الحظ أنني لم أستثمر مدخراتي كلها في شراء قطعة أرض وبناء منزل"، قال أحدهم، "لو فعلت، لما بقي لي لا منزل ولا مدخرات، لأن الإسرائيليين كانوا سيدمرونه." ويقول آخرون إنه لا معنى لبناء منزل جديد أو للاستثمار في ترميم المنزل [المهدّم]، لأنهم يعلمون "أن الإسرائيليين سيعودون وسيدمرونه." ليس هذا مجرد خوف من المستقبل: إنه يدل على ثقة بأن المستقبل لن يجلب إلاّ ما هو أسوأ، لأن إسرائيل اجتازت الحدود التي وضعتها لنفسها في السابق.

تلك كانت حال غزة في الأشهر الأولى التي تلت الهجوم: تتأرجح بين الخوف الشخصي والجماعي الذي أوجده الهجوم الإسرائيلي، والذي تحول إلى معطى ثابت كأن عنصراً آخر أضيف إلى عناصر الطبيعة، وبين موهبة أهلها في النظر إلى أنفسهم وإلى الواقع بمنظار هزلي – تراجيدي وساخر. قال فواز: "ما بالي أقول الخوف؟ الخوف كلمة غير ملائمة." وروى كيف رأى الموت مراراً وتكراراً، عندما قصف الطيارون الإسرائيليون مرة تلو الأُخرى، 16 مرة، مباني الحكومة المجاورة لمنزله، وكيف قذف كل هجوم شظايا أسمنتية وحديدية ملتهبة إلى داخل منزله مباشرة. وكان قد ظن، عندما قرر البقاء في منزله، أن إسرائيل لن تقصف مباني الحكومة "لأنها تضع في حسابها أنه يجب ترك شيء ما لمحمود عباس، عندما يعود." هذا ما رواه بعد ذلك بأربعة أسابيع. كان الخوف من نوع جديد. أهو تهكم وموهبة الاستهزاء بالذات والسخرية السوداء؟ كلا. أم لعله، في الواقع، أمر يرفع المعنويات؟ في حيز الخوف والهزل هناك ظلال كثيرة تصف حالة غزة ما بعد الواقعة، لكننا هنا، هذه المرة، سنكتفي بعرضها.

لم يكن أزيز الزنّانات وحده هو الذي أيقظ مخاوف لا تزال ماثلة في النفوس: فالعواصف الرعدية التي حدثت خلال شباط/فبراير ظنها البعض قصفاً من طائرات إف – 16 (أيّ إف – 16 هذه؟ إنها على الأقل إف – 30، هكذا كانت تشتكي امرأة من سكان حي الرمال الهادئ كلما تحدثت الأخبار عن غارة نفذتها المقاتلات التي ألقت قنبلة هزت أركان منزلها قبل قليل). علاوة على ذلك، لم يكن الأطفال في غزة خاصة، بحاجة إلى أصوات الرعد كي يجفلوا، أو يقفزوا من أماكنهم مذعورين – حتى بعد أربعة أشهر من الهجوم: صوت خبط الأبواب وطرقها بقوة، أو دوي الطائرات عندما تخترق حاجز الصوت، أو مجرد سقوط شيء ما بطريقة عفوية، أمور كلها كانت كافية لإثارة الرعب تحت قشرة الهدوء و[شعار] "الحياة عادت إلى طبيعتها". وبالنسبة إلى العديد من الأطفال، انغرس يوم السبت، الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين منه، في وعيهم كفاصل زمني مرعب، وبات سبباً يدفعهم إلى الطلب من آبائهم أن يبقوا في المنزل وألاّ يذهبوا إلى المدرسة. ففي 27 كانون الأول/ديسمبر، السبت ظهراً، الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين – عندما تنتهي النوبة الصباحية في المدارس، ويكون عشرات الآلاف من تلامذة النوبة الثانية في طريقهم إلى تلك المدارس – قامت مروحيات مقاتلة وطائرات صغيرة بلا طيارين إسرائيلية بقصف مراكز شرطة ومقار أمنية وحكومية في أنحاء القطاع، يقع كثير منها بالقرب من المدارس. ثمة أطفال شاهدوا من غرف الصف جثث رجال الشرطة تطير في الهواء، وهناك أطفال ما زالوا، بعد أربعة أشهر من الهجوم، يخافون من

الذهاب إلى المراحيض في باحة المدرسة – بسبب قربها من محطة الشرطة التي قُصفت. ويتذكر التلامذة والمعلمات كيف تعرضوا لزوبعة هوائية جارفة لحظة القصف بينما كانوا يسيرون على الرصيف؛ وهم يواصلون الحديث عن لحظات الخوف كأن كل شيء حدث بالأمس.

هنالك أطفال كثر أيضاً، أطفال في الثانية عشرة والثالثة عشرة، "يبللون سراويلهم"، ولا يستطيعون التركيز، ويتراجعون في دروسهم، ويرفضون الدراسة متذرعين بالقول: "ماذا سينوبني منها؟" ويتصرفون بعنف إزاء باقي أفراد العائلة، ويتعلقون بوالديهم طوال الوقت. هذه تقارير أدلى بها آباء في جميع أنحاء القطاع، أمام مختلف هيئات المساعدة النفسية، وحوارات العلاج الجماعي التي تكاثرت كالفطر. كل هذا ولم نبدأ بعدُ بالحديث عن الذين تعرضوا لإصابات مباشرة: الذين قَتل أو جرح الجنود الإسرائيليون أفراد عائلاتهم في القصف الجوي والبحري والبري، أو اعتقلوهم، أو احتلوا منازلهم ودمروها، أو احتلوها ووسخوها. هناك آلاف عديدة من الأشخاص الذين ما كانت أي مؤسسة صحية أو مؤسسة رعاية اجتماعية، مهما تبلغ قدراتها – وهذه غير متوفرة – لتعرف كيفية التعامل مع حاجاتهم المادية والنفسية.

"ثمة مبالغة في وصف الصدمة وتدهور الصحة النفسية بعد الهجوم الإسرائيلي، أو تدهور الحياة الطبيعية" – هذا ما قاله لي صديق قديم، أحد ناشطي "حماس"، ورجل أكاديمي. كان يتحدث بناءً على تجربته مع أصدقائه، وأطفاله، وجيرانه، وأقرباء آخرين. وبحسب رأيه، فإن هذه مبالغة تستند إلى مفهوم مستورد تبثه منظمات غير حكومية – محلية ودولية – بين الناس. هل من المحتمل أن يكون أعضاء "حماس" تعرضوا لضرر نفسي أقل من غيرهم، وبالتالي توصل هو إلى هذا الاستنتاج؟ أمِنَ المحتمل أن يكون الخوف – الذي اختبره الجميع – لم يترك فيهم الآثار نفسها؟ "هذا كبت"، قال لي طبيب نفسي، ذلك بأن خوف ما بعد الصدمة والآثار الجسدية والنفسية لا يفرّقان بين من يتبنون مواقف سياسية مختلفة. "هذا أمر محتمل"، قالت لي طبيبة نفسية أُخرى وناشطة في إحدى المنظمات النسوية – "فعائلات "حماس"، تُعد نفسها للتضحية، لموت شخص قريب، للمعركة، للصعوبات. إنها تربي الناس على الصمود ساعة الامتحان كجزء لا يتجزأ من الدين (وليس لمجرد كونك فلسطينياً)." "إن الشخص الذي قال لك ذلك يقيم في حي تعرّض لضرر أقل نسبياً"، قال أحدهم. "إنهم (حماس) يكذبون"، قال آخر – إنهم يتحدثون عن الانتصار، ولذا، ليس في إمكانهم الاعتراف بالعواقب الصعبة علناً.

غير أن الناشط في حركة "حماس" لا يعيش بين رفاقه في الحركة فقط. لقد شاهد السرعة التي عاد بها الناس إلى مزاولة حياتهم (عدا الآلاف الذين فقدوا أعزاءهم، وعشرات الآلاف الذين فقدوا منازلهم وممتلكاتهم)، وكذلك السرعة التي عادت بها المدارس إلى ممارسة التدريس، والأولاد إلى الدراسة وتقديم الامتحانات، والموظفون الحكوميون ورجال الشرطة إلى العمل، والشبان والشابات إلى الزواج، والحوانيت إلى البيع، ومحطات الإذاعة (غير الإذاعات المغلقة، التابعة لـ "فتح") إلى البث وإذاعة الإعلانات بعد الافتتاح مباشرة، والأنفاق إلى العمل، والزهور لتباع في الحوانيت. وفي ساعات الظهيرة، عندما خرج التلامذة من المدارس في أفواج، شاهدتهم يضحكون ويبتسمون دائماً. "قد يظن المرء أنهم لم يشهدوا هجوماً عسكرياً قبل ثلاثة أشهر فقط"، قلت مرة لسائق تاكسي كان يقلّني، فأجاب: "الابتسامات فقط تجاه الخارج، أمّا في الداخل فهناك يأس وألم كبيران." ومن نافلة القول إنه ليس من مؤيدي "حماس".

"ما رأيك في الانتصار؟" – سُئل غزّي كبير السن في بث مباشر. هذا ما رواه بعض الأشخاص خلال الأيام الأولى التي تلت الهجوم. لم يكن في استطاعة هؤلاء أن يحددوا المحطة – ربما كانت تابعة لـ "حماس" أو مقربة منها، أو أن المذيع تبنى صورة الواقع التي نسجتها "حماس". كان جواب الرجل المسن، والذي تردد على لسان الكثيرين مراراً وتكراراً في جميع أنحاء القطاع: "انتصاران آخران كهذا وستُمحى غزة عن وجه الأرض." وبمرور الوقت أضاف الناس تنويعات من عندهم إلى هذا الجواب: "انتصاران آخران كهذا ولن يبقى بشر في غزة"، أو "انتصار آخر كهذا ولن يصبح في الإمكان مشاهدة رفح من بيت حانون." هذه العبارات المريرة قيلت واستُقبلت بضحكات مدوية، أو بابتسامات عريضة.

في نهاية كانون الثاني/يناير ومطلع شباط/فبراير، كان ثمة خوف واضح من الإدلاء برواية مغايرة لرواية "حماس" في العلن. ففي الحي السكني الذي تضرر أكثر من أي حي آخر جرّاء الهجوم الإسرائيلي، سُمع بعض الناس يقول همساً إن المقاومة الشديدة والمُحكمة التي حدثت – بحسب رواية "حماس" – لم يكن لها وجود، لا هي، ولا ذلك الانتصار الذي احتفل به الناطقون بلسان "حماس" ووسائل إعلامها والمتعاطفون معها. لكن التقارير (الدقيقة والمُغالى فيها) التي تحدثت عن حملة قمع (قتل أشخاص؛ إطلاق النار على الركبتين؛ ضرب؛ تهديدات؛ إقامة

جبرية) كان لها تأثيرها، إذ خشي الناس أن يتحدثوا. فالرجل المسن الذي تحول إلى شخصية أسطورية، اقترح، بروح السخرية السوداء التي يتمتع بها، مخرجاً يمكن للجميع التستر وراءه والاعتماد عليه: "لست أنا من يقول ذلك، وإنما ذلك المسن الذي ظهر في التلفزيون"، كما أن الذين لم يرغبوا في أن يوضحوا لماذا لا يجهرون بما يكمن في صدورهم، فأشاروا على رُكَبهم قائلين: "واحسرتاه على الركبتين". أمّا أوساط حركة "حماس"، فتحدثت عن "أخطاء من جانب أفراد". لكن التخويف كان له تأثيره، مع أن بعض الأشخاص في أوساط غير سياسية – في سيارات الأجرة أساساً، وأحياناً في مناقشات مفتوحة عقدت بمبادرة من منظمات غير حكومية – أعرب عن تذمّره علناً. غير أن الانطباع الذي خرجتُ به، والذي لا يستند إلى أي أساس علمي، هو أن الناس أكثر حذراً في كلامهم، مقارنة بفترة حكم عرفات والسلطة الفلسطينية، وذلك باستثناء بعض الشواذ الناشطين في منظمات حقوق إنسان، الذين نشأوا وتربوا في أوساط اليسار الفلسطيني.

في مقابلة أجريتها في أيار/مايو مع أيمن طه، أحد كبار المسؤولين في "حماس" ومن أبرزهم، لم يتمالك طه نفسه، وابتسم ابتسامة خفيفة عندما ذكرتُ له الرجل المسن ومقولته، لكنه أصر على موقفه: كان هذا انتصاراً. وشدد، كما هو مفهوم، على أن المعاناة والثكل ليسا هما مقياس الانتصار، وإنما النيات الإسرائيلية. فإسرائيل تحدثت عن تصفية سلطة "حماس"، ولم تصفَّ، كما أن صمود الشعب والمقاومة لم يمكّن إسرائيل من احتلال قطاع غزة كما كانت تريد، وأجبر جيشها على الانسحاب. لقد هزم الجيش الإسرائيلي الدول العربية في ستة أيام، وفي سنة 2002، أعاد احتلال مدن الضفة الغربية خلال أيام معدودة (وهنا وقع طه في فخ التضليل الإسرائيلي، كأن احتلال الضفة "انتهى" مع تطبيق اتفاق أوسلو في سنة 1996)، لكنه لم يستطع هزيمة قطاع غزة خلال ثلاثة أسابيع. وقد رُددت ادعاءات كهذه، وأُخرى مشابهة، على لسان أشخاص في أحاديث خاصة، كما أن وسائل الإعلام المتعاطفة مع "حماس" كررتها.

"قسماً إنكم شعب (الجبارين)"، قلتُ لمحمود، أحد معارفي، على الهاتف – بينما كنتُ في رام الله، وكان هو يركض بين الصواريخ والقذائف، من منزله إلى الميدان، لجمع المعلومات ولرؤية بعض الأشخاص. هذه الصفة، شعب الجبارين، كانت الاستنتاج الأساسي الذي توصلتُ إليه أيضاً خلال الأشهر الأربعة التالية، عندما كنت في القطاع وجمعت شهادات من عشرات الأشخاص وسمعت عن تجارب مر بها مئات آخرون. قال لي محمود على الهاتف: "أترين؟ ظننتُ أن عرفات كان يكذب، فإذا به يقول الحقيقة." لقد ردّ عليّ آخرون بصراحة، عندما قلت لهم استنتاجي: "نعم، شعب الجبارين، لكن رغماً عنا. لو فتح المصريون [معبر] رفح، لما بقي أحد في غزة."

هذا التصوير الساخر للواقع، والخوف، استقرا معاً طوال الوقت في صميم الانقسام الفلسطيني، والتنافس الحزبي، والعداء الثقافي. "أنا من جماعة دايتون" – هكذا يقدّم الذين يتلقون الرواتب من رام الله أنفسهم، وأمّا فلان فهو "تابع لـ (الحكومة) الشرعية"، هكذا يقول الذين يتلقون الرواتب من غزة، ضاحكين. وفي تظاهرة الأول من أيار/مايو، والتي قامت بها لجان العمال المستقلة أمام مكتب منسق الأمم المتحدة الخاص لعملية السلام في الشرق الأوسط (UNSCO) المغلق (كان ذلك يوم سبت، عندما كان موظفو المكتب الذي يزداد حجماً، والذي أسسه تيري لارسون، أحد مهندسي اتفاق أوسلو، غير موجودين)، رفع أحدهم لافتة مربكة: دايتون وشيخان – "فتح" و"حماس" = رواتب. هذا هو الاستنتاج غير الإيجابي، الذي يعبر عنه مراقبون من خارج الحزبين، وإن انطوى على تبسيط للأمور.

"دايتون" و"الشرعية" كلمتان رمزيتان ساخرتان تؤشران إلى حرب أهلية مستترة لم يلغها المصير المشترك خلال فترة الهجوم، ولا ذلك الشعور المشترك الذي يتشاطره الجميع وهو أن "الضفة" عامة، وحكومة رام الله خاصة، "لا تعبآن بالغزيين". فرام الله، ولأسباب خاصة بها، لا ترسل، منذ نحو عام، جوازات السفر الفارغة ليصار إلى تعبئتها في غزة وإصدارها منها. خطوة عقابية ضد "حماس" تلحق الضرر بالجمهور كافة. لقد وجد بعض الأشخاص المال والوسيلة لإرسال طلب جواز السفر الجديد إلى رام الله، ومع أن سلطات "حماس" منعت ذلك في بعض الأحيان، إلاّ إنها عامة، لم تمنعه. لكن المال والعلاقات الملائمة لا يتوفران لدى كل شخص. أمّا بالنسبة إلى عامة الناس، الذين لا يعدّون من كبار المسؤولين في "حماس"، ولا من المقربين منهم (الذين يغادرون القطاع عبر رفح)، ولا من كبار المسؤولين في "فتح" (الذين يغادرون عبر إيريز)، ولا من كبار المسؤولين في المنظمات غير الحكومية (NGO'S)، الذين يتدبرون أمورهم باعتبارهم سلطة ثالثة – فليس هناك طريق للخروج. لكن عندما تكون مصر على استعداد لفتح معبر رفح في الحالات الاستثنائية (للمرضى والطلبة)، فإن التفكير في أن التنافس بين رام الله وغزة بشأن السيطرة على المعبر هو ما يمنع الخروج، كان أمراً لا يحتمل.

خلال فترة الهجوم، أصدرت رام الله تعليمات تقضي بعدم نقل الجرحى للعلاج في إسرائيل. في ظاهر الأمر، انطوت معارضة نقل جرحى الهجوم لتلقي العلاج "لدى المهاجم" على منطق وطني قوي. كما أن "حماس"، ولأسباب مماثلة، لم تؤيد ذلك أيضاً. أمّا منظمات حقوق الإنسان فادعت العكس: إسرائيل هي القوة المحتلة، وليس مجرد "جار تصرف بهمجية"، ولذا، فمن واجبها معالجة الجرحى. كما أن الحصول على مستند طبي من مستشفى إسرائيلي، وتقديمه إلى لجان تحقيق ودعاوى قضائية، سيكونان أقوى وأكثر إقناعاً أضعافاً مضاعفة من تقرير كُتب في مستشفى في غزة أو في مصر. لكن القرار كان قد صدر. ثم جاء دور المرضى: أمرت وزارة الصحة في رام الله بوقف تمويل العلاج في إسرائيل (علاج سكان الضفة أيضاً). وقد نفت الوزارة، في وقت لاحق، أن يكون القرار شاملاً للجميع، لكن الوقائع على الأرض كشفت عن مرضى بالسرطان أوقف علاجهم في منتصف الطريق بسبب ذاك القرار. إن غزة مدينة صغيرة، ولذا، عرف الناس فوراً من هم أصحاب الواسطة في أوساط السلطة، إذ إنهم ذهبوا إلى إسرائيل للعلاج. ومع أن العلاج في مصر والأردن أرخص، إلاّ إن "الشحشطة" تكلف المرضى الغزيين ثمناً باهظاً، هم وصحتهم وعائلاتهم. وقد قامت حكومة غزة بخطوة شطرنج من جانبها كي تثبت سيادتها: طردت من وزارة الصحة موظفي رام الله الذين كانوا يشغلون دائرة تحويل المرضى إلى العلاج في الخارج، وبالتالي، لم يُنقل المرضى للعلاج وإجراء الفحوصات خارج غزة لأكثر من شهر. وقد حُلّت هذه المشكلة نتيجة جهود مكثفة قامت بها منظمات غير حكومية، إلاّ إن رواسب المرارة أضيفت إليها طبقة أُخرى.

لقد فُسر القمع المباشر الذي تعرض له أتباع "فتح" خلال فترة الهجوم والأيام الأولى التي تلته، بأن هؤلاء أيدوا الهجوم الإسرائيلي صراحة أو مداورة. وروى لي أشخاص لا يعدّون من مؤيدي "حماس" أنهم التقوا أشخاصاً من "فتح" عبّروا عن سرورهم علناً خلال الأيام الأولى من الهجوم الإسرائيلي: لقد اعتقدوا أن نهاية سلطة "حماس" باتت وشيكة. وكان ثمة من وزعوا الحلوى على جيرانهم. وعلى حد زعم "حماس"، فقد وُضع مثل هؤلاء الأشخاص في قيد الإقامة الجبرية، أو أطلقت النار على أرجلهم. وكان هناك آخرون – كما ادعت "حماس" – أجروا "اتصالات" برام الله أدلوا خلالها بـ "تقارير" و"معلومات". وكان التلميح هنا واضحاً: لقد أدلوا بمعلومات كي يسهّلوا مهمة العدو، تماماً كالعملاء الحقيقيين، كما أدلوا، بحسب ذلك الافتراض وبحسب تلميحات قوية من جانب إسرائيل، بمعلومات أمنية: أين تخبَّأ الأسلحة، أين الأنفاق، أين يتجول المسلحون، وفي أي سيارات. كانت "حماس" على قناعة بأن السلطة تنوي العودة إلى غزة على جنازير الدبابات الإسرائيلية، ولذا حرصت على عدم خسارة معظم مقاتليها وخيرتهم في معارك خاسرة مع الإسرائيليين: لقد حافظت عليهم للمرحلة التالية، ضد جيش السلطة. أمّا الجيش الإسرائيلي فلم يميز بين "الشرعية" و"دايتون": على العكس من ذلك – كان الانطباع العام هو أن الذين لا ينتمون إلى "حماس" تعرضوا لأضرار أكبر كثيراً. فخلافاً لرجال "حماس"، لم يحرصوا على الاختباء، أو على ترك منازلهم قبل فوات الأوان. كما استنتج الناس أن هذا الأمر كان متعمداً: التعرض لغير المحسوبين على "حماس"، من أجل تعزيز الكراهية لها. ويبدو أن إجراء مكالمات عادية مع زملاء سابقين في العمل، أو مع أصدقاء الطفولة ممن يتواجدون في الضفة، فسّرته "حماس" على أنه "اتصال برام الله". وأصبح هذا "الاتصال" بنداً جنائياً في لوائح الاتهام. ومن أجل الكشف عن هذا كله في مدينة غزة المزدحمة بالسكان، كانت "حماس" بحاجة إلى شبكة استخباراتية خاصة بها. ويُقسم بعض الناس على أن الشوارع ملأى بالمخبرين الصغار، الذين يكمنون ويراقبون كل حركة، وقد حظوا بتسمية خاصة بهم: زنّانات أرضية. إن روح الفكاهة الغزية لا تخيب الآمال، لكن كراهية وعداء عميقين يكمنان وراءها.

سقط صاروخ من إحدى الزنّانات الجوية مباشرة أمام ناظرَي أحمد، وهو من سكان رفح: لقد استهدف مسلحاً كان في سيارة أمامه. وقع ذلك في أحد الأيام التي تلت 27 كانون الأول/ديسمبر. شكا أحمد قائلاً: "لقد اعتدنا على الصواريخ التي تطلق من المروحيات، إذ كان في وسعنا سماع صوتها، وعرفنا كيف نتهرب منها في الوقت الملائم، وكنت أعرف كيف أوقف سيارتي في اللحظة الملائمة. كان ثمة بضع ثوان بين الوميض أو صوت الإطلاق، وبين السقوط والانفجار. لكن صاروخ الزنّانة؟ هذا حقاً كثير جداً، لأنك في بعض الأحيان لا تسمعه إلاّ عندما يسقط عليك." لقد قال لي أحد كبار الناشطين في إحدى المجموعات المسلحة إن أساليب التهرب من الزنّانات وصواريخها تشكل جزءاً مهماً من التدريبات التي تتلقاها المجموعات المسلحة التابعة للمنظمات الفلسطينية، كما أن أشخاصاً وصفوا لي، وهم يتحدثون همساً، عدداً من أساليب التهرب، وهذا سر عسكري، ومن المحظور الكتابة عنه. وبدا هذا الأمر في نظر طفل يقيم بمنطقة شبه زراعية شرقي خان يونس أشبه بلعبة "توم وجيري" بين الزنّانة ومطلقي

صواريخ القسام: عند ظهورها، يختفي هؤلاء كأن الأرض ابتلعتهم، وعندما تبتعد قليلاً، يعودون إلى إطلاق الصواريخ. تماماً كلعبة أطفال.

في أوساط "حماس" والجهاد الإسلامي ومؤيديهما – وفي أوساط مجموعات مسلحة تابعة لمنظمات أُخرى – فإن هذا يعدّ سبباً للاعتزاز، فهم يشيرون إلى التطور في الكفاءات العسكرية الفلسطينية، وإلى تطور أنواع الأسلحة المستوردة وتلك التي تنتج في القطاع بمرور الزمن، وذلك بفضل استراتيجيا التسلح التي تتبعها "حماس" أساساً: من حجر الثمانينيات، إلى صاروخ غراد اليوم الذي يصل إلى مسافة أبعد يوماً بعد يوم، و"من يدري ما الذي يقدر شبابنا على القيام به." وفي هذه الرواية، يصبح الخوف معكوساً: "لو كانوا رجالاً لخرجوا من الدبابات وقاتلونا وجهاً لوجه، ولتغلبنا عليهم"، هكذا يقول منطق المسلحين، وهذا ليس منطقهم فقط. بكلمة أُخرى، فإن التقدم الفلسطيني لا يقاس بناءً على موازين القوى السياسية والعسكرية مع إسرائيل، ولا بناءً على هدف إحباط الخطط الكولونيالية الإسرائيلية، وإنما كشأن داخلي يرتبط بجوهر المجتمع الفلسطيني عامة، ومنظماته المقاومة خاصة، والتي تبتكر أساليب خلاقة في حفر الأنفاق، كأن كل شيء يحدث في مزرعة ذات كفاية ذاتية.

من السهل جداً أن يشعر المرء في غزة كأنه في مزرعة ذات اكتفاء ذاتي، وأن يتصرف على هذا النحو. وخلافاً لما ينشر في عناوين الصحف، ولما تكتبه منظمات التضامن على أنواعها، فإن الحصار الإسرائيلي لغزة لم يبدأ قبل ثلاثة أعوام، ولا حتى منذ الانفصال عن القطاع في سنة 2005، وإنما قبل ذلك بوقت طويل. وفي الواقع، فإن الحصار عبارة عن عملية تشديد متدرجة في سياسة إسرائيلية متعمدة تهدف إلى فصل غزة عن الضفة الغربية، وعن إسرائيل وباقي العالم، وقد بدأت منذ سنة 1991. فمعظم سكان القطاع، الذين يوجد بينهم أطفال يتعلمون من الإنترنت كيف يصنعون مواد متفجرة من السكر والمبيدات الحشرية في المنزل، وأطفال يكنون لهم الإعجاب بسبب ذلك – لم يغادر القفص إطلاقاً. إن محادثات الفيديو، وتصفح الإنترنت، وتعليم الناشئة في المساجد – كلها أصبحت وسائل بديلة من الوسائل الممنوعة عنهم منذ نحو 20 عاماً. "إن شاء الله تفتح الحدود"، يقول الناس، كأنهم يقولون "إن شاء الله تمطر السماء هذا العام." إنهم يتحدثون عن "تصريح" مغادرة إلى رام الله كما يتحدثون عن سحب اللوتو: "يا ليتنا نربح". شيء بيد العناية الإلهية لا بيد البشر. إن أمنية الفتاة يافا البالغة 17 عاماً، والمولودة في مخيم الشبورة للاجئين، هي الدراسة في جامعة بير زيت، فأحد أبناء عمومتها درس في بير زيت. لكن عندما تقول "بير زيت" للراشدين فكأنما تتحدث عن القمر.

لقد كان لدى شمعون بيرس أمل بأن تصبح غزة دولة فلسطينية، وبأن تطبَّق تسوية أُخرى في الضفة الغربية. إن الذين أحدثوا الانقسام الفلسطيني – "فتح" و"حماس" – يتصرفون بحسب السيناريو الإسرائيلي، وهذا وفقاً لقول الدكتور إياد السراج، وهو من سكان مدينة غزة. وحتى الآن، وبعد الهجوم الدامي الذي وقع في كانون الأول/ديسمبر – كانون الثاني/يناير، لا يزال الحرمان من الحق في حرية الحركة، هو السلاح الأكثر تطوراً وفتكاً الذي تستخدمه إسرائيل. ■

(*) مراسلة الشؤون العربية في صحيفة "هآرتس".

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx